وَلِهَتْ فأَظلمَ كل شىء دونها وأنار منها كلُّ شىء مظلمِ

فهى تودعه والهة لفراقه ، ويحس كأنما طمست بنورها كل ضوء من حولها ، وأنها سرعان ما كست الوجود بنورها ، ففارقت الأشياء الظلمة والظلام . وكثيراً ما يمتدّ هذا التضاد فى وصفه ، فتتوالى الأبيات مغموسة به ، على نحو وصفه المشهور لقلم ابن الزيات وزير المعتصم ، وفيه يقول(١) :

لعابُ الأَفاعى القاتلاتِ لُعَابُهُ وأَرْىُ الجَنَى اشتارتْه أَيْدٍ عَواسِلُ(٢)
له رِيقةٌ طَلٌّ ولكنَّ وَقْعَها بآثاره فى الشرق والغرب وابِلُ(٣)
فصيحٌ إذا استنطقته وهْوراكبٌ وأَعجمُ إن خاطبته وهْو راجل (٤)

وكثير ممن كانوا وراء أبى تمام وأبى نواس وبشار كانوا لا يقلون عنهم محاولة فى الإتيان بطرائف المعانى والصور ، وكانوا ما يزالون يغدون ويروحون على مجالس المعتزلة وغيرهم من المتكلمين ، كما كانوا يكبُّون على قراءة كتب الفلسفة والثقافات الأجنبية ، محاولين أن يكتسبوا من ذلك كله ما يتيح لهم فى أشعارهم أن يشيعوا فيها المعانى النادرة والأخيلة المبتكرة .

٣

التجديد فى الموضوعات القديمة

ظل العباسيون ينظمون فى الموضوعات القديمة من المديح وغير المديح مما كان ينظم فيه الجاهليون والإسلاميون وبذلك أبقوا للشعر العربى على شخصيته الموروثة ، وقد مضوا يدعمونها دعما بما لاءموا بينها وبين حياتهم العقلية الخصبة وأذواقهم المتحضرة المرهفة ، فإذا هى تتجدد من جميع أطرافها تجدداً لا يقوم على التفاصل بين صورة هذه الموضوعات الجديدة وصورتها القديمة ، بل يقوم على التواصل الوثيق .

---

(١) الديوان (طبع دار المعارف) ٣/١٢٣ وطبعة بيروت ٢٢٩ .
(٢) لعاب الأفاعى : سمها . والأرى : العسل واشتاره : جناه .
(٣) الطل : المطر والندى الخفيف . والوابل المطر الغزير .
(٤) راجل : ضد راكب ، ويريد بركوبه إمساك الأصابع به للكتابه .

وربما كان أهم ما سجلته صحف المديح فى هذا العصر صور الأبطال الذين كانوا يقودون جيوش الأمة المظفرة ضد أعدائها من الترك والبيزنطيين ، فقد أشادت إشادة رائعة بكل معركة خاضوا غمارها وكل حصن اقتحموه ، حتى كادت لا تترك موقعة ولا بطلا دون تصوير يضرم فى النفس العربية الاستبسال والمضاء وجلاد الأعداء جلاداً عنيفا ، وكل كاتب فى هذه الصحف أو قل كل شاعر يتفنن فى رسم بطولة القائد الذى يمدحه رسما يشعل الحماسة فى نفوس جنوده ونفوس الشباب العربى من وارئهم فإذا هم يترامون على منازلة أعدائهم ترامى الفراش على النار يريدون أن يسحقوهم سحقًا . وكان الرشيد والمأمون والمعتصم يقودون بأنفسهم الجيوش التى كانت تمحق البيزنطيين محقًا ، فتغنى الشعراء بانتصاراتهم غناء يسكب الفرحة فى كل نفس ، لعل من أروعه غناء أشجع شاعر البرامكة بفتح الرشيد لهرقلة فى آسيا الصغرى واكتساحه لجيش نقفور إمبراطور بيزنطة[1] ، وأكثر منه روعة غناء أبى تمام بفتح المعتصم لأنقرة وحرقه لعمورية فى بائيته المشهورة ، وهى أن تكون ملحمة أقرب منها إلى أن تكون قصيدة . وتكتظ كتب الأدب ودواوين الشعراء بتصويرهم لبسالة جميع القواد ، لا الذين أسهموا فى حروب البيزنطيين فحسب ، بل أيضًا فى حروب الترك وبابك الخُرَّمى وغيره من الثائرين فى شرقى الدولة . ولم يكتف الشعراء بهذا التصوير فقد عنوا بتسجيل كل ما يستطيعون من تفاصيل عن المعارك الحربية ، وبذلك لم تعد قصائدهم مديحًا فحسب بل أصبحت أيضًا تاريخًا ، وهو تاريخ كتب شعراً ، تاريخ أبطالنا وأمجادهم الحربية . وكان هؤلاء الأبطال ومن ورائهم الخلفاء يرصدون الجوائز الضخمة للشعراء كى يرسموا هذه البطولات ، ورسموها حقًا رسما باهراً سنرى مقتطفات منه فى تضاعيف تراجمهم ، ويكفى أن نسوق قطعة من تصوير على بن جبلة لبطولة أبى دُلَف العِجْلى قائد المأمون المشهور ، إذ يقول من قصيدة طويلة يصف فيها بعض وقائعه[1] :

المنـــايا فى مَقَانبِهِ والعطايا فى ذَرَا حُجَرِهْ[2]
وزَحوفٍ فى صواهلـــه كصياح الحَشْر فى أَمَرِه[3]

---

(١) طبقات الشعراء لابن المعتز ص ١٧٥ والأغانى (طبعة الساسى) ١٨/١٠٣ .
(٢) المقانب : جماعات الخيل ، ذرا الحجر فناؤها .
(٣) زحوف : صفة مبالغة من الزحف ، يريد الجيش . والأمر : الكثرة .

قُدتَه والموتُ مكتمنٌ فى مذاكيه ومُشْتَجِرِه (١)
فرمتْ جِيلُوه منه يَدٌ طوتِ المنشور من بَطره (٢)
زُرتَهُ والخيل عابِسةٌ تحمل البُؤْسى إلى عُقُرِه (٣)
فأَبحتَ الخيلَ عَقْوَته وقَرَيْتَ الطير من جَزَره (٤)
صاغك الله أَبا دُلَفٍ صيغةً فى الخَلْق فى خِيره
كلُّ من فى الأَرض من عَربٍ بين باديه إلى حَضَره
مستعيرٌ منك مكرُمَةً يكتسيها يومَ مُفْتَخَرِه

وكانت المدحة قديمًا تشتمل على مقدمات تصف الأطلال وعهود الهوى بها وما يلبث الشاعر أن يستطرد إلى وصف الصحراء ناعتًا ما يركبه من بعير أو فرس وما يراه فيها من حيوان وحشى ، وقد يعرض لوصف مشهد الصيد ، وكثيراً ما يضمنها بجانب ذلك حكمًا توسع مدارك السامع وتبصره بأطراف من سنن الحياة . وكل ذلك استبقاه شاعر المدحة فى العصر العباسى ، ولكن مع إضافات كثيرة ، حتى يلائم بينه وبين عصره . وتتسع الإضافة أحيانًا وتضيق أحيانًا ، ولكنها دائمًا تعبر عن الذخائر العقلية والخيالية للشاعر العباسى . وقد نعجب لاستبقاء هؤلاء الشعراء المتحضرين لعناصر الأطلال ورحلة الصحراء البدوية ، غير أنهم اتخذوها رمزاً ، أما الأطلال فلحبهم الداثر ، وأما رحلة الصحراء فلرحلة الإنسان فى الحياة ، وقد استغلوا ما كان يصحب الأطلال من حنين لذكريات حبهم ومعاهده لا يزال يترقرق فى أشعارهم من مثل قول مسلم بن الوليد (٥) :

هلا بكيتَ ظعائناً وحُمولا ترك الفؤادَ فراقُهم مخبولا
فإذا زجرتُ القلب زاد وَجيبُهُ وإذاحبستُ الدمع زاد هُمولا (٦)

---

(١) المذاكى : الخيل ، والمشتجر : القنا والرماح .
(٢) جيلوه : من ثوار أذربيجان . البطر : الطغيان بالنعمة .
(٣) العقر : محلة القوم .
(٤) العقوة : ساحة الدار . والقرى : الضيافة . والجزر : مايذبح .
(٥) ديوان مسلم (طبع دار المعارف) ص٥٣.
(٦) واضح أن مسلماً يخاطب نفسه وكأنه يخاطب غيره ، والظعائن : النساء فى الهوادج . والحمول : مايحملنه معهن .

وإذا كتمتُ جَوَى الأَسى بعثَ الهوى نَفَساً يكون على الضمير دليلا[١]

واهاً لأَيام الصِّبا وزمانِه لو كان أَمتع بالمُقَام قليلا

وحاول بعض الشعراء أن يترك الحديث عن الأطلال المهجورة إلى قصور الحاضرة المأنوسة ، وحينئذ كان لا يسترسل فى وصف حنينه ، على شاكلة أشجع إذ يستهل إحدى قصائده بقوله[٢] :

قَصْرٌ عليه تحيَّةٌ وسلامُ نشرتْ عليه جمالَها الأَيامُ

وعلى نحو ما استبقوا الأطلال وما يتصل بها من حنين يعبث بنفوسهم استبقوا رحلة الصحراء ، وتفننوا فى وصف وعوثة طرقها ورياحها الحارة التى تكاد تتوقد توقداً ، على شاكلة قول مسلم[٣] :

ومَجْهلٍ كاطِّراد السيف مُحْتجَزٍ عن الأَدلاَّء مسجور الصياخيدِ[٤]

تمشى الرياحُ به حَسْرَى مُوَلَّهَةً حَيْرَى تلوذ بأَطراف الجلاميد[٥]

فالرياح من شدة الحر وما يجرى فى قلبها من الفزع تلجأ إلى أطراف الصخور المستعلية فوق الآكام ، كأنها تريد الفرار من هذا الجحيم المطبق . وقد داروا حول وصف الحيوان الوحشى محاولين أن يستنبطوا بعض الصور الطريفة من مثل قول بشار فى بائيته[٦] ، يصور ما نال أُتن الوحش من حرقة العطش الشديد :

غدتْ عانةٌ تشكو بأَبصارها الصَّدَى إلى الجَأْبِ إلا أَنها لا تخاطبُهْ[٨]

وهى صورة تخفق بالحياة ، إذ مثَّل العطش فى غَوْر أحداقها ، حتى لتهمُّ بالكلام شاكية لحمارها ، ولكن أنَّى لها ذلك وهى عجماء لا تُبين . وكان الشاعر القديم يكثر من وصف نحول بعيره ونوقه لطول الطرق الوعرة وما يصيبها من شدة الكلال والإعياء ، حتى ليشبهها بالأقواس والأهلة ضموراً وهزالاً ، وردَّد الشاعر

---

(١) جوى الأسى : ناره وحرقته .
(٢) ابن المعتز ص ٢٥٢ .
(٣) الديوان ص ١٥٤ .
(٤) مسجور : موقد . الصياخيد : جمع صيخود وهو اليوم اللافح الحر .
(٥) الجلاميد : الصخور .
(٦) انظر القصيدة فى الديوان ١/ ٣٠٥ .
(٧) العانة : القطيع من الأتن . الجأب : حمار الوحش . الصدى : العطش . ومعنى شكواها العطش بأبصارها أنه قد تبين فى أحداقها فغارت .

العباسى هذا المعنى طويلا محاولا الخلوص إلى بعض الأفكار المستحدثة ، من مثل قول أبى الشيص مخاطبًا أحد ممدوحيه وواصفًا نحول نوقه ونحول راكبيها(١) :

أكل الوَجيفُ لحومَها ولحومَهم ... فأَتوك أَنقاضاً على أَنقاضِ(٢)

ولقد أَتَتْك على الزمان سوا خطاً ... فرجعن عنك وهُنَّ عنه رَواضى

وتحول الشاعر العباسى فى أحيان كثيرة من وصف الصحراء ومسالكها وسمومها وحيوانها إلى وصف الرياض فى الحاضرة ومناظرها البهيجة فى الربيع ، ومن خير ما يصور ذلك قصيدة أبى تمام فى مديح المعتصم التى يستهلها بقوله(٣) :

رَقَّت حواشى الدَّهر فهْى تَمَرْمَرُ ... وغدا الثَّرَى فى حَلْيهِ يتكسَّرُ(٤)

وقد مضى يتحدث فى إسهاب عن جمال الطبيعة فى الربيع ، وكأنه يتخذ منه رمزاً لعصر المعتصم . واتخذوا أحيانًا من وصف السفن ورحلتها فى الأنهار صورة مقابلة لرحلة البعير فى الصحراء ، مثل قول بشار فى إحدى مدائحه للمهدى(٥) :

وعذراءَ لا تجرى بلحمٍ ولا دمٍ ... قليلة شكوى الأَيْن مُلْجَمةِ الدُّبْر(٦)

إذا ظَعَنَتْ فيها الفُلول تشَخَّصَتْ ... بفُرسانها لا فى وُعوثٍ ولا وَعْرِ(٧)

تُلاعب تيَّارَ البحور وربمـــا ... رأَيتَ نفوس القوم من جَرْيها تَجرِى

وجعلتهم موجة المجون الحادة فى العصر يصفون فى مقدمات مدائحهم الخمر أحيانا ، واستهل ذلك بشار ، وتوسع فيه مسلم وأبو نواس وأبو العتاهية سعة شديدة . وعُنوا على نحو ما عنى الشاعر القديم ببثِّ الحكم فى قصائدهم ، وكان قد ترجم كثير من الحكم الفارسية والهندية واليونانية ، فأفادوا من ذلك كله ونثروه فى تضاعيف مدائحهم ، مضيفين إليه كثيراً من تأملاتهم فى الحياة والطباع ، من مثل قول أبى تمام فى فضل المحسود ونقص الحسود(٨) :

---

(١) ابن المعتز ص ٧٦ .
(٢) الوجيف : السير السريع .
(٣) الديوان (طبع دار المعارف) ٢/١٩١ وطبعة بيروت ص ١٣٩ .
(٤) تمرمر : تموج ليناً ونعومة . الثرى : التراب ويريد به النبات . ويتكسر : يتثنى .
(٥) أغانى طبعة دار الكتب) ٣/٢٤٢ .
(٦) الأين : الإعياء .
(٧) الفلول : الجماعات . ووعوث : جمع وعث وهو المكان السهل .
(٨) الديوان (طبع دار المعارف) ١/٤٠٢ وطبعة بيروت ص ٧٨ .